

الفصل الثالث

البوذية °

١ - الأصول

كان الآريون حين انحدروا من مضائق كابول إلى بنجاب أشبه الناس بالعجم ، على ما يصفهم « هيرودوتس » ، أو بالجرمان على ما يصفهم تاسيت : قبائل بين البدو والحضر معظم مدار ثروتهم قطعان الثيران والبقر ، ولم قرى ومنازل ، وهم على علم بالزراعة ، فكانوا كما كانت شعوب الأرمن والسيروس على حدود ما بين حياة الترحال وحياة السكن يحكم كل أسرة أبوها ، ويقود كل قبيلة ملك أو رئيس حرب . ولم يكن عندهم فرق ولا طوائف إكليروس ، بل كان كل أب يقوم بالوظيفة التعبدية في بيته ، وكانوا ذوى أخلاق ساذجة حرة صحيحة كتلك الأخلاق التي يمجدها الإنسان في أصول كل شعوب ذلك الجنس الآرى . ولم يكن للأوهام الصوفية المريضة أى أثر فيهم ، بل كانوا على العكس من ذلك ذوى عواطف كلها رجولة وشرف ، تنصرف عبادتهم للآلهة إلى طلب القوة والمجد والنصر والغنيمة .

° هذا الفصل تلخيص للترجمة الفرنسية التي قام بها الكاتب الفيلسوف ميوليت تين
لكتاب البوذية للكاتب الألماني الشهير كوين .

فإن بحثنا عن الصفة الخاصة التي كانوا يمتازون بها عن باقي الأجناس التي ترجع إلى الأصل الآرى وجدناها متجلية في تخيلهم البالغ أبعد حدود الدقة ، وأعجب مظاهر النماء - فعندهم وحدهم توحد الأساطير في هذا الصفاء وذلك الامتداد ، حتى لكأنما خلق هذا الشعب ليرى آلهة في كل الأشياء ، وأشياء في كل الآلهة . يعبدون السماء المضيئة ، والنور اللآلء الذى يعم الأشياء وينفخ فيها الحياة . ويعبدون الصاعقة الرائعة . والرعد المحسن الذى يشق السحب فيفك الأمطار المخصبة من إسارها . ويعبدون الشعاعين التوأمين ينبعثان من شواطئ الآفاق بشيرين بعودة الضياء . ويعبدون حمرة الأفق . والفجر الأبيض ينسل من خلال الظلام قبيل مطلع الشمس ليكشف صدره أمامها كشف العروس عن صدرها أمام زوجها . ويعبدون « آتى » - وهى النار التى يثيرها احتكاك العصي بعضها ببعض - آتى « اللابسة ثياب الإبداع ، مختلفة ألوانها متعددة أشكالها بديعة تعم الأرض ، تخمد وتشب وكثيراً ما تهرم ثم يعود إليها شبابها » ويعبدون الرياح والأنهار ومختلف مظاهر الشمس . وبالجملة فهم يعبدون كل ظواهر الطبيعة على حالها فى نقائها وصفائها . لا على صور الإنسان كما جعلها « هوميروس » . ولن يستطيع الإنسان أن يتخيل مبلغ ذلك النقاء والصفاء قبل أن يقرأ الفيدياس ، فليست الأساطير عندهم سرّاً خفياً ، وإنما هى أشياء واضحة جليلة . بل هى تعبير وإيضاح . ولن ترى لغة أبلى ولا أسلس من لغتهم . تعطيك صور السحاب وموج الهواء وانتقال الفصول وكل ما للسماء والنار والعواصف من أحداث . ولم تلق الطبيعة وسطاً ألين مرونة ولا أحسن ملاءمة لتظهر فيه بمختلف مظاهرها غير المنسوبة ما لاقت فى هذا الحيز . ومهما يكن للطبيعة من استحداث ومظاهر فإن الخيال البوذى ليس أقل

منها في ذلك . فليست له آلهة ذات شخصية ثابتة ، ولكنها تستحيل ويمتزج بعضها ببعض . ففارونا ^(١) هي « أندرا » ، لأن الرعد هو السماء الصاعقة وأندرا ^(٢) هي « آتى » لأن الصاعقة هي النار السماوية . وكل واحد من هؤلاء الآلهة هو الإله الأعلى . وليس لأحد منهم شخصية معينة . إذ كل واحد ليس إلا لحظة من لحظات الطبيعة قدر حسب حال التصور أن يشتمل صاحبه أو أن يشتمله صاحبه . لذلك كانت الآلهة متعددة بالغة في الكثرة . فكل لحظة من لحظات الطبيعة ، وكل حال من أحوال التصور قد تنتج إلهاً هي الأخرى . والشراب الذى يقدم للآلهة والصلوات والأدعية وكل طقوس العبادة تنتهى بها الحال لتكون قوى وآلهة تنادى وتوقر ، وحيثما وجدت قوة - والقوى توجد في كل مكان - فالآرى يقيم إلهاً لا على أنه شخص ، ولكن على أنه قوة . وهذا العمرى جمع عجيب بين التعمق التجريدى والإحساس الشعري ، بل بين الصلاحية لفهم الطبيعة والميل لتمثيلها وتصورها . ولم يثبت جنس من الأجناس أول قيامه ما أثبتته الجنس الآرى من هذا الذكاء الدقيق الحساس المتحضر لا يبدع خلائق محيطة غير متناهية المستعد للانثناء والاختفاء تحت النهاء الخصيب الذى تنموه آلهته .

ليسمع القارئ بالتدقيق في ملاحظة هذه الصورة من صور الدهن القديم . فإذا أضيف إليها المركز الجديد الذى أعده الغزو والطقس للشعوب الآرية إذن لأحطت بالسبين الشاملين كل ما سواهما الحاويين

(١) وهو الرعد

(٢) وهو السماء

موجز شأن الجنس الهندي وفكرته ، وإذن للمست القوى التي لن تزول ،
والتي توجه زوبعة الحوادث الإنسانية والإرادات الصناعية البشرية
والتي تقيم النظمات وتبعث الديانات وتنتشر الأفكار وتقرر الأخلاق
فلا يستطيع حادث وقفها ولا يقدر مجهود شخصي على قهرها ، والتي
تقضي على مئات الملايين من الخلائق بالذل وفساد الخلق والخيال
والبأس ، وإذن يحيط الإنسان بواقع الحياة الهندية العظيمة القطيعة .
وما كان لنا أن نتهج هنا ابتهاج مسييون بمنظر المذبحة التي خلطت ما بين
أشلاء جيشي ماسينا وقرطاجنة ، فلسنا من الرومان ، بل نحن رجال
بأخذنا الإشفاق كلما فكرنا في مصيرنا وفيما قدر لنا . ولو أن شيئاً بالغاً في
العظمة بدعونا للتفكير فيما قدر لجنسنا أن يحتمله لكانت تلك المآسى
الصحيحة غير الملفقة مسرحها نصف قارة ، ومداهها ثلاثون قرناً ، وأشخاصها
قوى القدر المحتوم تتطاحن أرزاؤها خلال بؤس تسعين جيلاً من الأجيال
الإنسانية ، ودموعها تنهر من غير أن تهدأ إلى غاية .

تقدم الآريون على مهل من السند إلى الجنج وجعلوا يخضعون لحكمهم
السكان السود ذوى الشعر المسطوح . ولما كان هؤلاء الهمج الذين
أحتلوا شبه الجزيرة عرضة لأمراض جلدية فظيعة ، وكانوا يعبدون الثعابين
وشياطين الهواء ، فقد عاملهم الغزاة كأنهم قطع من الحيوانات الخسيسة
وظلت الحروب أزمنة طويلة استقر بعدها القادمون إلى عصر يشبه عصور
أوروبا المتوسطة التي أعقبت غزو قوط الأربك ولبارودى البرات وأفرنجة
كلوفيس ، وأحلت بينهم حياة الاستقرار محل حياة الترحال ، وقام النظام
البطركي (الأبوى) مقام الإمارات الحربية وتميز الطبقات . فجاء فيما
بعد طبقة الأشراف والعاليين طبقة الجنس الخسيس المغلوب من (الكودرا) -

وهم جماعة العبيد من الزراع والصناع والعمال الذين خضعوا للقلب .
 وجاء من دون هؤلاء الأجناس المطرودون والهمج المتوحشون الذين أمتنعوا
 على الجمعية الجديدة واحتموا منها بالمغائر والجبال والمستنقعات ، ثم انقسم
 الجنس الغالب بعد ذلك بقوة الظروف وانحط مجموع الأمة من العاملين
 إلى مركز دون مركز الأسر المحاربة التي لزمتم الثمرن على الأسلحة ، ودون
 مركز الأسر الدينية التي أخذت على عاتقها الاحتفاظ بطقوس العادات
 وأدائها . وقد أدى هذا النظام إلى انفصال الأعمال ، كما أدى القلب
 إلى انفصال الأجناس وبدأت الفرق تتكون وجعلت الفوارق بينها تقوى
 وتعظم . ثم حدث من بعد ذلك حادث حاسم أدى إلى تقديسها وبالتالي
 إلى تحليدها . فقد قامت بين الفرقتين الرئيسيتين : فرقة البراهمة وفرقة
 الشاترية ، حرب استعلاء كالحرب التي قامت بين الجلف والجيلان ،
 ثم انتصر فيها البراهمة بسبب استنادهم إلى الطبقات الوضيعة . وكان نصراً
 أتم مما حازه الباباوات ضد الهوهنستوفن . وقد ترتب على ذلك استئصال
 الشاترية لولا أن التجأ القساوسة لاستبقاء فرع عقيم منهم مخافة أن يتلعمهم
 الفناء بعد إذ وقفت جميعتهم المتداعية على حافة مائلة لتنهيار فيه . وقد أصبح
 أهم ما للملوك والشاترية من وظيفة أن يباركوا البراهمة حماية لهم ، وبذلك
 طبعت الجمعية بالطابع الديني وأصبح انفصال الفرق أمراً مقررأ ، وانقلبت
 الأنظمة المدنية قواعد دينية ، وأخذت الحكومة الشكل الديني . والعقل
 الديني كذلك ، وظلا محفطين به إلى وقتنا هذا .

ولتفوق البراهمة هذا أسباب مختلفة ، منها : تغير الخلق الآرى تحت
 تأثير الطقس . فإن شمس الهند قاسية فظيعة لا يطيقها أحد ورأسه عار
 إلا السكان الأهالي سود الجلود . فإذا جاء تحت هذه السماء المحرقة شعب

أجني آت من بلاد معتدلة ، بل باردة رأيته لا يطبق المراتة الجسمية ، بل يبدأ عنده الميل للراحة والكسل ، وتلاشي عنده حاجات البطن والمعدة وتفتر عضلاته وتصبح أعصابه سريعة إلى التهيج ، وذهنه أميل إلى التأمل والحلم . ينتهى ذلك بتكوين هذا الشعب الغريب الذى يصفه السائحون اليوم لنا : حساسية إنسانية مرتعشة ودقة فى التصور عجيبة ، وروح واقفة عند حدود الجنون ، قادرة على كل اضطراب وكل ضعف وكل إغراق ، مهياة أن تقلب أمام أنفه الصدمات . مجاورة للأفن والهوس ونوبات الجنون ، ونحياىل يمج بأحلام فظيعة تنشر الرجل وتطويه على نحو ما يبطأ الرجل الضخم الدودة الحفيرة . ولم يجد الدين فى الطوائع الإنسانية مثل ما وجد من الصلاحية فى هذه الروح لينمو وبتزعزع . لذلك نما غراسه وتأصلت جذوره وامتدت فروعها وانقلب الطبع الشعري إلى نظر باطنى أساسه وحدة الوجود ، فتضامت الآلهة الكثيرة المنفرقة تحت حكم ثلاثة آلهة ذوى سلطان هم : « فارونا » فى السماء ، « وأندرا » فى الهواء ، « وآنى » على الأرض . ومن وراء هذه الآلهة الثلاثة ظهرت الروح الكبرى التى تعمل بواسطتها لإحياء الأشياء . وتلك هى الشمس . ثم يستمر التفكير التجريدى العميق فى سبيل تقوية الطبيعة الحارة الدائمة التجدد والسيولة حتى يستبعد هذه الشمس المحسوسة ويستظهر القوة العليا من خلال الأشكال المتغيرة ويقرر : أنه لم يكن فى البدء إلا الموجود غير المحدود ، الموجود الذى غير ذى الشكل ، وأن كل شيء كان مختلطاً به وأنه كان مطمئناً فى الفراغ ، وأن هذا العالم نتج بقوة فكرته . أما عن ماهية هذا الموجود فقد وصلت المثابرة والجد بالآبحاث الفلسفية لا نتزاعه من دائرة الطبيعة المحسوسة ووضعه فى سلطان القساوسة . فقد كانت النار التى

أوقدها البراهمة واستبقوا عقيدتها من بين الآلهة القديمة أيضاً ، لكن هذه النار بالرغم من عظمتها كانت محسوسة بحيث لا يمكن أن تكون الموجود العام النقي الطاهر . لذلك أخذ أحد أسمائها - البرامانسياني ، أى ملك العادة - فصار إلهاً مستقلاً غير مادى ، وصار يزداد أهمية شيئاً فشيئاً حتى اشتمل كل ما سواه . ثم بتر من هذا الإله برهمة جديد أبعد عن المادة وأغرق في جوهر العبادة التى أصبحت الموجود الأول لاشكل له وهو لكل شىء مشتمل . وكذلك اختلطت العبادة بمبدأ العوالم وبالإله الأعلى . وسبب ذلك أن التضحية والكلمة المقدسة والعبادة لم تكن عند هذه الأذهان المهتاجة مجرد دعوة والتماس ، بل كانت قوة ظاهرة متسلطة . وقديماً اعتقد هؤلاء الناس أنهم يلزمون الآلهة الطاعة بواسطة هذه العبادات ، وبالغوا في تصورهم لذلك حتى حسبوا أن ليس للعبادة دافع . لذلك ألهوا « مونة » البناء والعصى ، كما ألهوا كل لحظة من لحظات التضحية ، ووصلوا في تصورهم إلى جعل القوة التى يخضع لها العالم بأسره ماثلة في الفكرة المتواترة . وقد جاء على لسان الملكة فى إحدى أغاني ريج : « إننى أنا الملكة وأول من يستحق التكريم . فى مترا وأندرا وآنى والإسفانيين وكل من سواهم وأنا الحائلة بالآلهة فى كل شىء ، والنافذة إلى كل شىء . بل أنا مبدأ كل الموجودات وكالريح أهب من كل مكان » . أما سادة هذه الكلمة وتلك العبادة فهم البراهمة ، وهم بذلك الآلهة على الأرض . ولقد قال برهمة فى إحدى بوراناته : Pourans : إنه يأكل بفهمهم وأن لا أحد يعدلهم ، وأنهم الآلهة ، لذلك هم فى الذروة من كل الأشياء . وظاهر أن سلطانهم بين مثل تلك العقائد سلطان باق إلى الأبد .

والآن فلنتنظر لما فى مجموع مذهبهم من أفكار ونظم ، حتى نرى

ماذا تكون الحياة تحت تأثيرها . فبرهمة الذى هو روح الأشياء والموجود غير المحدود ينمو ، ونموه هو العالم . وهذا النمو ليس منفصلاً عنه ، بل إن برهمة نفسه يسيل ويتنشر ويخرج من نفسه خروج الجدول من النبع ، والشجرة من البذر ، والنسيج من العنكبوت . لكن هذا العالم الذى هو بالذات برهمة ليس إلا ذاته منقوصة مشوَّعة ، لأن ابتعاد المادة الأصلية عن أصلها أفسدها حتى صارت درجات تحولها المستمرة درجات إلى تزايد الفساد ، فبينما ترى الآلهة والنور فى الصف الأول إذا الصف الثانى فيه الناس والشهوات ، وفى الصف الثالث الحيوانات والنباتات والظلمة والمادة . وهذه المظاهر المتعاقبة من برهمة ليست إلا برهمة مهدوداً مضطرباً ساقطاً مستمراً مع تحوله فى سقوطه وتدركه . فالعالم إذن فساد ، والحياة شر ، والأرض قرارة بؤس وتعس . ولا كمال ولا سعادة إلا فى الوجود الجامد الخالى . وخير الخير لكل مخلوق أن يعود فينغمس فى برهمة الجامد Immutable الذى خرج منه .

هذه العقيدة تبعث بلا شك على اليأس المبرح وتدفع إلى النفس التقزز العام من الحياة ، وتدعو إلى إفناء الشخصية الإنسانية إفناء تاماً . وقد كان ذلك هو الشأن فى أوروبا حينما قامت مثل هذه العقيدة عند الإسكندرانيين والأغنوطيين وما سواهما من الطوائف المتصوفة ولبدة الضغط الرومانى . على أن الذى زاد الطين بلة أن امتزجت بهذه العقيدة الهندية عقيدة شر منها . تلك هى أن الحياة ليست شراً وحدها ، بل هى شر يهوى الإنسان إليه من جديد بعد موته . فإن الأرواح تنتقل من جسم إلى آخر وفى مختلف أنواع الأجسام من حجر ونبات وحيوانات وآلة ورجال بلا انقطاع ولا سكون مدى ملايين القرون من أرقى الدرجات إلى

أسفل الدركات تقذف بها خفاياها ، على مقدار دركات تلك الخطايا والتي تصل في أتعس الأحوال وأدثها إلى ثمان وعشرين جهنم تشق فيها بصنوف من العذاب رتبها وهذبها وأطالتها أوهام أشقياء وجلادين . ففكرة الشر الكائن المغروس في أعماق قلب الأشياء ، المتضاعف المنتشر في كل ما هنا لك مما يحيط بالحياة الإنسانية ، المتعاضم إلى ما وراء كل الحدود مما أبدع له الخيال الهائج المضطرب من مبتكرات الفطائع ، تلك هي الفكرة السائدة التي تثقل كاهلهم في الحياة النظرية وتودي بهم في الحياة العملية إلى شرور تتوارث معها جسامه وعظماً .

وسبب هذه الفكرة أن الاستبداد هناك تام شامل يحول من كل النواحي دون العمل ، ويشل الإرادة . وقد انقلبت الملكات الحربية أثناء هذا التوتر العصبي العام إلى استبدادات مطلقة ، وأدخلت صنوف التعذيب والإلزام والتخريب وكل ما إلى ذلك من مفاصد الحكومات الشرقية . وقامت الفوارق بين الطوائف منيعة لا يمكن تخطيها ، وارتبط كل بحظه ونصيبه وكأنما شد إليه بأغلال من حديد . زد على ذلك أن كل لحظة من لحظات الحياة وكل جزئية من جزئياتها نظمت حتى لم يبق للإنسان حرية في حركاته لشدة ما قيده الاستبداد الديني وغلله . وهذا الاستبداد أضيق خناقاً من الاستبداد غير الديني . قطعت المخاوف الناعسة الأوامر والنواهي التي لا عدد لها والمقدسة كلها في النفس المضطربة . ومن هذه الأوامر ما يرتب دقائق العقيدة وطقوسها ، ومنها ما ينظم الأدعية والصلوات والقراين والغسل والوضوء والرغبات والبخور ، ومنها ما يعين ملابس وأخلاق كل طائفة . ومنها ما يرسم الذهاب والجيئة والنوم والملبس وخلعه والاستحمام والتطيب وسائر الوظائف الجسدية . فهذا كله يذكركنا بالأعمال الكثيرة

التي كانت تشغل القسيس في ديره كل نهار أيام القرون الوسطى حين كان من الخطيئة أن يسرع الإنسان السير أو أن يرفع بصره إلى الكنيسة . وقد كان هذا الضغط لدى البراهمة مضاعفاً مئات المرات حتى لا يسهل له شيء . وما كان للذاكرة أن تعي مختلف الأوامر التي لا حصر لها . ثم كان كل ترك لأى من هذه الأوامر خطيئة . وما كان لأحد مهما يبلغ من دقة انتباهه أن يجتنب موجبات الدنس . وكان كل دنس خطيئة . فلم تلك ملازمة جثة الميت هي وحدها التي تندس المؤمن ، بل كان يدنس كذلك مجرد الاقتراب من أى مكان وضعت فيه أشلاء إنسان أو بقايا حيوان أو عظام أو شعر أو أطافر أو قذرة . كما كان يدنس استعمال إناء غير طاهر وتنفس من شرب الخمر أو أكل الثوم . ويقابل كل خطيئة تكفير وجوب الطهر بالماء وبروث البقر وتلاوة الأدعية وأنواع من تعذيب الجسد تبلغ أحياناً من الفظاعة أكثر مما بلغه تمثيل قسنا أنفسهم . فمن قتل بقرة خطأ لزمه ارتداء جلدها والبقاء ملتحفاً إياه والإقامة في آخر مرعى رعت فيه مدى ثلاثة أشهر ليل نهار . ومن شرب العرق عمداً لزمه أن يشرب من سائل يغلى حتى تحترق أحشاؤه وحتى يموت . فلعلك تستطيع وقد رأيت ذلك أن تحكم على مبلغ ما كان ثبت من الفظائع الدينية . فإذا ذكرت إلى جانب ذلك أن عندهم ثمانية وعشرين حجياً مفرغة يهوى إليها كل من وقع في خطيئة أو أهمل أمراً أو لم يتب توبة كاملة أو نسي أن يكثر . ثم هو لا يخرج منها إلا ليتنقل ثقلاً متعوساً طوال الدهر من جسم إلى جسم ليكون يوماً دودة وآخر ثعباناً أو حشرة أو رجلاً زنبياً . وإذا ذكرت المخاوف الدائمة التجدد وآلام تلك الأوهام الهائلة المحتشدة إذن لفهمت الرغبة العظيمة في الخلاص الأخير تدفعها

نورة اليأس واندفاع الصيحة المضغوطة الثائرة .

وكيف السبيل إلى هذا الخلاص ؟ لقد بلغ من ميسيس الحاجة إليه أن تعلق به رؤساء تلك الجمعية وأن أوضح القانون طريقه . قال ماتو : على البرهمي متى لاحظ أن عضله ضعف ، وأن البياض قد انسل إلى شعره ، وكان قد رأى حفيداً له ، أن يهرع إلى الوحدة هو وزوجته . ثم ليُرض نفسه على الحرمان وتعذيب الجسم ويلزم العبادة والصوم والسهر وليعرض جسده عارياً إلى قوارس الطقس إبان فصل الأمطار ، وليقف بين أربع نيران تحت الشمس المحرقة أثناء الفصل الحار ، ثم ليعدم في نفسه كل شهوة وكل شهية . فإذا تم له ذلك ترك زوجته وعاف صحبتها ولم يأكل إلا مرة كل يوم وعاش من إحسان المحسنين ومعا من ذهنه كل إرادة وكل فكرة محسوسة . ومتى صار كذلك بسيطاً نقياً طاهراً أصبح خالصاً من الشر . وذلك لا شك دواء يعالج به المرء نفسه . فإن الإمعان في الجمود يقتل الحس . والإمعان في التلاشي يقطع على الإنسان سبيل الألم . بعد ذلك ولما تدعو إليه الوحدة من التأمل يفتح طريق جديد تقوم عنده المبادئ التجريدية على أساس من النظر الفلسفي ، فينقلب المتصوفون فلاسفة وتتصادم فرق المتكلمين فيذهب بعض . تمشياً مع العقائد القائمة إلى أنه ليس إلا موجود واحد هو برهمة ، وأنه غير محدود وأنه طاهر وأنه لا صفة له ولا شكل وأن الخلائق المختلفة ليست إلا تقلباته وتدرجاته . ثم يتخطون العقائد إلى أن العالم وهم ولا شيء موجود أصلاً خارج برهمة . وإلى أن العلم إنما هو معرفة العدم في الأشياء . وإنما ينتهي بالعقل تأمله إلى عدم الاعتقاد بوجود خاص له ثم لا يرى إلا الموجود الخالي لا شيء وراءه ولا شيء خارجاً عنه . ويقوم إلى جانب

هؤلاء المفكرين ، السنين « مفكرون أحرار يتفقون معهم في أن الخلاص هو الغاية ، وأن الوسيلة إليه هي معرفة الوهم . لكن الأولين يحررون الإنسان من نير الطبيعة بتقريرهم أن الطبيعة لا وجود لها ، في حين يحرره الآخرون بتقريرهم أن الروح جوهر بسيط نقي لا سبيل للطبيعة عليه . فالأولون يعدمون الشر بإنكار مسبباته في حين يعدمه الآخرون بإنكار المنجى الذى يصل هو إلينا عن طريقه . لذلك كان خلاص الروح عند (الفدنتا) انغماسها في الوجود المشابه وعند (السنخيا) يرجوعها إلى نفسها - هذه هي التأملات التي نزع إليها المعتزلة قبل مجيء بودا . وإن السائح الذى يرى هؤلاء الناس على ما يصفهم الشعراء وقوفاً تحت شجرة من أشجار الموز ناحلة أبدانهم منقطعة حركتهم ثابتة عيونهم محتبسة أنفاسهم ليرى مشهداً فذاً لا مثال له . والفلسفة لم تكن هنا مثلما كانت عند اليونان ترويحاً عن الذهن وتسريحاً للفكر المطلق المنظم . بل كانت على خصصها وسعتها في التفصيلات والتحليلات وفي دقة النظر ذات غاية ترمى إلى عمل من شأنه تحويل الإنسان نفسه بنفسه والجهاد لذلك جهاداً عظيماً يصل بالذهن إلى حدود الخيال والهوس لتمرّكه وثباته عند نقطة واحدة معينة ودوام العودة إليها مدى الشهور والسنين . وإنك لتجد عند المتصوفة وسائل ميكانيكية لإثارة صور الهوس في النفس . ولا عجب فتلك نتيجة المواقف العنيفة الطويلة المدى . فإن الإنسان يفر من الألم كما يسيل الماء من فوق المنحدر ، فإذا زاد به الألم وبلغ منتهاه استعاذ منه إلى كل ملجأ ولو كان قتل الحس بإتلاف الأعضاء إتلاقاً منظماً ، أو كان الجنون بإتلاف عقله كذلك . ولقد كان من واجب كل من ارتفع بعض الشيء عن سواد الرهط الذى يعيش فيه أن يبحث عن ملجأ يحتوى به . وكان كل

حكيم راجح العقل يخلق لنفسه ملجأ ويدعو الناس إليه . وبذلك تكونت طائفة كبيرة من الفلاسفة والديانات والأنظمة والنظريات حتى ظهر أخيراً من جمع الكل ووجههم وجهة الطريق الحق : إلى السلام .

٢ - مميزات البوذية

لا يحرك الإنسانُ الناسَ بفكرة ولكن بعاطفة . وقد تدعهم أعمق النظريات وأدقها ثقالا ثم تخرجهم عن طوقهم نصيحة مبتدلة . وبعض العبارات المتداولة التي صرنا لانهم اليوم لها ظهرت في الماضي اكتشافاً معجزاً قدس صاحب الوحي به . والجماعة المتألمة الطامحة كالرجل الطامع المتألم ، تأتيه بما شئت من نظريات متأسكة وأنسجة بدیعة من المضاربات الفلسفية فتزلق هذه الشروح عن ذهنه دون أن تحترق حجب نفسه وتراه يستمع إليك لحظة ثم يحييك تحية الرجل الكيس ليعود فينغمس في ألمه ، على حين ترى كلمة متداولة يقال بلهجة مؤثرة تستدر دمه وتدفع به إلى أحضانك مسلماً زمامه وإرادته . وكذلك الشأن في أزمت الجنس البشري . ترى الناس جميعاً ينتظرون كلمة معينة هي وحدها التي يستطيعون فهمها . أما الكلمات الأخر فتمر بهم وكأنها جلبة سخيفة تطن مضطربة حول آذانهم . ثم لا يكاد يهمس بالكلمة المنتظرة هامس حتى ترى الناس جميعاً وقد أصاخوا لها وتلقوها وتناقلوها وأكبروها باجتماع أصواتهم جميعاً ، ذلك بأنهم المقابل لحاجة عظيمة متغلغلة في نفوسهم ، والأثر لتطور عام خفي ، ومظهر مجموعة ضخمة من التصورات والجهود المتسللة خلال قرون عدة

في مختلف طبقات الجمعية وضعيها ورفيعها ، والآخذة بالأفكار المختلفة . . .
 فهي في ظهورها كالنوع يثور متى لاقت ضربة المجلس طبقات الماء
 المضغوط . ولقد زعم الزاعمون أن « محمداً » كان ملفقاً - وحاشاه - ألف
 ما بين الإنجيل وآراء الفرق التي عاصرتة . وأن « لوتر » إنما كرر عبارات
 ضخمة ما سبقه إليه « جان هس » و « فيكلف » ، لكن الحقيقة أن
 هؤلاء إنما نطقوا في عصرهم وأمتهم بالكلمة الفذة ونطقوا بها لا بشفاهم
 ولكن بكل قلبهم وبكل كيانهم ووجودهم . وذلك ما جعل لكلامهم قوة
 وإصلاحهم قيمة . وذلك هو ما يجب أن يبحث عنه في أحاديث « ساكيا
 موني » وإصلاحه .

تنقل الأساطير أنه كان في السموات بين الآلهة ، وأنه اشتمل على
 منتهى الفضائل برحمته وإخلاصه وتقواه ، وأنه جمعها في متعاقب حيواته^(١)
 ثم إنه اعتزم آخر الأمر لخلاص الموجودات الحية أن يهبط في أحشاء
 امرأة فأجال طرفه في العالم ثم اختار مياديني وهبط إليها - ولم يحسبها رجل
 في شعاع مضيء ذي خمسة ألوان . ولما حان الحين ولد وترى وزوج في
 حجر الملك الذي كانت مياديني زوجته . لكنه لما بلغ التاسعة والعشرين
 - وكان قد ذاق كل لذائد الحياة - اختمرت أفكاره العظيمة فشعر بعطف
 على الخلائق وفكر في خلاصها . وسبب ذلك أنه رأى يوماً في طريقه وقد
 خرج من القصر إلى إحدى الحدائق هراً مقوس الجسم أصلع الرأس
 مجمد الوجه مرتعش الأطراف . ورأى في مرة أخرى مريضاً لا يرجى برؤه
 مهملاً أمره مغطى جسمه . ثم رأى في مرة ثالثة جثة بالية قد أكلها الدود ،
 فأنعم النظر في هذه الأرزاء وخرج من تفكيره إلى أن الشباب والصحة

(١) جمع حياة .

في الحياة ليست شيئاً مادام يأتي عليها الهرم والمرض والموت فأخذته الرأفة بحال الإنسان وجعل يبحث عن دواء لهذه الأمراض العضال . فلما خرج مرة رابعة رأى متسولاً متديناً دله جد مظهره وبادى كرامته على طمأنينة نفسه . فاعتزم للحال أمام هذا المنظر أن يعتزل العالم . ولقد وضع أبوه حراساً حول القصر ليحولوا دين تركه إياه لكنه أفلت منهم واحتمى بالوحدة وظل سبع سنوات يعالج أقسى أنواع التوبة ويعانى الجوع والعطش والحر والقر والمطر ولا يطعم كل يوم إلا حبة من سمسم . ثم رأى آخر هذا الزمن أن الاستماتة تغشى على الدهن بدل أن تربيته ، فطعم حتى عاد قوياً جميلاً وذهب إلى مكان نذر أن لا يخرج منه حتى يصير (بوذا) . هنالك جاء إليه « مارا » أمير هذا العالم وإله الحب والخطيئة والموت فهاجمه بكل أنواع الغواية مزعجاً إياه بدعوة سلاحه ، ومغويماً إياه بحسن فتياه ، لكن القديس ظل مطمئناً فلم ترعجه المخاوف « لأنه يرى كل الأمور حلماً ووهماً » ولم يستغوه الجمال ، لأن أجمل الأجسام لم تكن في نظره إلا بعض فقاقيع الماء والخيالات الزائلة . عند ذلك انهزمت الشياطين وبدأ النور الداخلى ، فذكر تعدد ميلاده السابق وميلاد كل الخلائق فأحاط في نظرة بالعوالم الهائلة التى لا عدد لها ووقف على السر الأبدى لكل الأسباب وكل النتائج ، واخترق حجب مظاهر التطور والتغير وعرف العدم الذى هو حقيقة مادة الأشياء ، ووصل إلى المبدأ الأسسمى المؤدى إلى السلام .

ويتكون هذا المذهب من حقائق أربع : فالوجود ألم لا يستدعى الهرم والمرض والحرمان والموت . وإنما يجعل الوجود ألماً تلك الرغبة الدائمة المتجددة والتي تجد أبداً ما يحول دين ما ترمى إليه من الانصال بالأشياء والتعلق بالشباب وبالصحة وبالحياة . إذن فيجب إعدام الرغبة لإعدام الألم .

ولإعدام الرغبة يجب أن تتخلى عن أنفسنا وأن نتخلص من ظمئنا الموجود وأن لا نشعر بانجذاب نحو أى شيء ولا لأى موجود ، تلك هى النظرية الأولى التى لم يتعدها « ساكيا مونى » على الأغلب . لكن التعمق فى البحث يكشف لنا عن فكرة تجريدية عميقة كانت أساس ما تلاها ، ولم يفت المفكرين الجادين الذين جاءوا فيما بعد استخلاصها . تلك الفكرة هى أن الحكيم يصل إلى التخلي والحمد حين يرى أن كل موجود يهلك لأنه مركب وأن هلاكه دليل على أنه ليس إلا مظهراً لا قوام له ولا قوة ، وظاهرة سائرة إلى العدم كالزبد يكون على سطح الماء ثم يفنى ، أو كالصورة التى تبدو فى المرآة . ومن ثم يصل إلى الاقتناع بأن الأشياء لا وجود لها وما دام الموجود لا وجود له فالميلاد لا وجود له . وبإعدام الميلاد ينعدم الهرم والموت والنبؤس والآلام والأحزان والقلق والمشقة . وبهذه الوسيلة تنعدم كومة الأحزان المكدسة . فإذا وصل الإنسان إلى هذا الشعور بعدمه تعداد الألم . لأن الألم ليس إلا دخاناً كالوجود فى التلاشى العام . وعندئذ يتحور الإنسان ويصبح ولا حكم للحوادث عليه ، ويطمئن الطمأنينة الخالدة إلى فكرة الفراغ الذى هو أساس كل شيء وكنهه . وبذلك يصل إلى الترفان ويصبح « بوذا » .

ذلك هو الطريق الفلسفى . لكن ثمة طريقاً آخر عاماً وجد النساء فى بابه الواسع مدخلاً للاحتواء بالديانة الجديدة التى كانت أكثر الأشياء ملائمة للأرواح يومئذ ، فإن تحلى الإنسان عن نفسه خلق لضيق بالنفس إذا جمدت ، وعندئذ تفتى الأنفة والأطماع والشهوات الشديدة المتحاربة أو الآخلة المرء عن نفسه حتى لتدوس الرجل بقدمك فلا يغضب ولا يفكر فى القيام ، ويحسب طبيعياً بعدماسقط أن يبقى فى الأرض . فإذا حدث

محدث عن نفسه خيل إليه أنه إنما يحدثه عن سواه لأنه لا يعياً بذاته . ثم هو لا يهتم بالأشياء الجميلة أو البراقة ، بل يبقى أمامها في جموده وهموده بسبب ما أصاب إحساسه من البلى وكذلك تراه على أتم استعداد لقبول مبدأ نكران الذات العام . فإذا قال « بوذا » : « اقتل الشهوة في نفسك » كانت الشهوة وقد انعدم من قبل جلها . وإن قال : « اقطع تلك الصلة الأنانية الملتببة التي تدفعك للتمسك بالأشياء » ، فإذا البؤس وقد جاء على آخر خيوط تلك الصلة . ولا عجب والإنسان في تلك الحال يوصى بالجمود والاستكانة أن يستمع لمثل هذه النصائح : أمح من نفسك الكبرياء والحسد والغضب وابتعد عن ملاذ الحس واقمع فكرك ، وخير أن يقمع الإنسان نفسه من أن يقمع نفسه ألف مرة ألف رجل آخر ، وكما تثبت الصخرة أمام العاصفة . يجب أن لا يتأثر الحكيم بالمدح أو بالذم ، واحكم نفسك ولا تقاوم ولا تدافع عن نفسك ودع نفسك لتصاريف القدر وتغل عن نفسك ولا تهتم أبداً لما يثيرها . وقد التفت ثعبان حول أحد العمال فأمسك العامل مسلكه ليدفع عن نفسه ثم ذكر أن القتل محرم عليه وألقى سلاحه . ووهب ابن المليك فسأنتارا كل ما يملك لأول سائل غير مستبق ذهباً ولا عبيداً ، بل ولا أولاده الذين غذاهم من دمه ، فلما فر الأولاد وعادوا إليه وهبهم ثانية ثم رآهم بعينى رأسه على أثر ذلك يجلدون بالسياط . وتلك هى الأمثال التى يخطب بها من أعلى المنابر إلى اليوم من يدعون لتقليد البوذيين . وحدير بالإنسان إذا وصل لمثل هذه الحال ألا يكون إنساناً وأن يكون حجراً يستطيع احتمال كل شيء ولكنه يعجز عن أن يحب شيئاً .

وفى هذا الاعتزال التام يجسد الإنسان منته . لذلك لم يكن الخلاص الذى سعى إليه « ساكيامونى » هو خلاص نفسه وحدها بل خلاص

الموجودات طرّاً . وقد كان يفكر في أمرها مثلما كان يفكر في أمر نفسه . وإنما هو خلاصها الذى أدى به ليعود بعد اتجاهه بكل نفسه مخلصاً للسواء فينغمس في قرارة تعاساتها وشقوتها . بلى « أنت يا من أحطت الناس بالنعيم وشملتهم بالعبودية ثم أصبحوا لك جلادين وقتلة فغفرت لهم . إيه سيدنا . لقد عطفت حينما كنت دُبّاً على رجل ملاءة اندفاع ماء الثلوج فزغاً فأخذته وأغدقت عليه من جذور الشجرة وفاكهتها وأعطته بكل صنوف العناية ثم ما لبث أن عاد ومعه رجال يريدون قتلك فغفرت له » . فإذا كان « ساكيا موني » يسعى في هذه الساعة كذلك لسلامه فما ذلك إلا ليرينا طريق السلام . ففكرته في الألم تشمل آلام سائر الناس وفي قرارة حزنه يستكن العطف على من سواه . والعطف على الغير هو الكلمة المرجوة . هو آية الوقت والنبا العظيم الذى سيرفع أولئك البؤساء من كبوتهم ويعزيهم عن مصائبهم . وهو الذى كانت تنتظره كل تلك القلوب الكبيرة أو البائسة . فإن الإنسان إذا وصل من الألم المبرح إلى أقصى غاياته وسقط إلى الدرك الذى لا صعدة منه فحمد نشاطه وتلاشت فيه شهوات الرجولة ، وهبطت روحه الرقيقة ونظامه العصبى إلى مواضع الاستسلام وعدم المقاومة بسبب ما أصابها من المهانة ونضب دمه لكثرة ما أريق منه وهامت على شفاهه المصفرة ابتسامة ضعيفة مكتوبة ثم أصبح لكثرة ما تألم فلا يفكر في الألم فنسى نفسه وأهلها ، هنالك تراه وكثيراً ما يصعد إلى قلبه صوت رقيق عذب مؤثر وترى ذراعيه وقد هجرتهما قوة النضال يجدان بقية من القوة يمتدان بها نحو البؤساء الذين سيكون إلى جانبه . وهذه الحركة هى التى تهز القلوب وتحثكم في الأفئدة وتبلغ بالنفس مكان النجاة : ولعمرك ماذا نهمنى الحقيقة المجردة أو الحجاج الدامغة بعدما انقطعت عن الرغبة وعن الأمل ، ثم

ماذا تهمنى المضاربات النظرية العالية . أو كيف لى أن أجاهد مع الجماعات النشيطة بعد ما أصبحت عاجزاً عن الوصول إلى فكرة وعن القيام بعمل ؟ كل هذا إنما هو للأقوياء لا لأمثالى العجزة الضعفاء . وكل هذا شديد وشخصى ضعيف فلا أطيعه بعد أن برحت لى الآلام حتى تركت العناية بنفسى . ولن أجد ضماداً لجراحى فى تطبيق مذهب معقد رواقى تطبيقاً دقيقاً ، وإنما ضمادى أن تمر لى يد إنسانية مرّاً رقيقاً يجعلنى أعتقد أن ثمة من بين سائر إخوانى من يهتم لى ويرجو دوائى . وأن أرى معونة إخوانى وتعزيهم من واجباتى . فالشعور بهذا الإشفاق وتلك المودة ، وهذه المراهم المشتركة المجتمعة ، هو الذى يسير بالناس وبالخلائق طرّاً نحو الطمأنينة والسلام ، وذلك هو الضماد الشافى . ولقد نشرت أثنائية البرهمنى والرواقى حول الحياة الإنسانية جواً بارداً محملاً بثلوج الشتاء فجاءت هذه الريح الدافئة فأذابت الثلج فى ألف موضع منه وأعادت إلى أعضائى المتجمدة المألومة حركتها . ففى لحظة ميلاد « بودا » قامت بنفس كل الموجودات أفكار المحبة والتعاون وشعر بعضها نحو البعض الآخر بعواطف الأبوّة والأمومة . ثم انقلبت الحوائل القائمة ما بين الفرق والطوائف والأمم رأساً على عقب ، ونادى « بودا » إلى سلام الناس جميعاً من ملوك وعبيد وبراهمة وبغايا وطهر وأرجاس ومواطنين وأجانب رجالاً ونساء . وانبثت رسله فى التبت ومنغوليا وفى آسيا كلها لهداية عباد الوثن ، وكان الفقراء والوضعاء أفضل عند برهمة بدليل ما جاء فى نصوص قديمة : « ليس هيناً أن يصل الكبراء والأصاغر إلى حظيرة السلام » . ولكن هذا الوصول أكثر مشقة على الكبراء منه على كل من سواهم . ولقد نادى صاحبه المفضل بغياً وأراد أن يشرب من يدها غير معتبر فى لمسها ما ينجمه . وكان من بين المستمعين إلى « بودا » كتاسو الشوارع والمفلسون

والشحاذون والشيوخ الذين هجرهم أقرباؤهم وضعاف العقول والمقطعة
أيديهم وأرجلهم والبغايا والغايات والبنات اللاتي ينمن في القذر ، بله
للصوص والقتلة . وكذلك كانت كل الرؤوس الشقية أو المستبد بها تنحني
بين يديه رجاء نفحة روحية تنالها - وكانت تعاليمه توافق مزاج هؤلاء السامعين .
فكان يعلم في الطريق ويكلم أتباعه في الأمكنة العامة ويقص قصص الحياة
السابقة بلغة سهلة بسيطة ، ويحدث عن الخطايا وعن جزائها وعن أعمال
الخير وعن مثوبتها . كل ذلك بلا نظريات ولا فلسفة ولا تمذهب ، ومن
غير مطالبة بأى بحث أو تقرير أى عمل . بل كان كل ما يطله طمأنينة
القلب وسكينته وأن يفكر الإنسان في نقائص نفسه لا في نقائص سواه ،
وأن يقابل المساءة باللين ، وأن لا يقتل أحداً أو حيواناً ولا عدواً ولا مجرمًا
وأن يحتمل الشر ولا يرده ، وأن يتسامح مع كل مغايريه في العقيدة حتى
المراطقة ، وأن يكون براً محسناً حتى إلى الأنعام - وبديهي أن في هذه
التعاليم ثورة تامة على العوائد والأخلاق أقامت على أنقاض شهوات الناس
القديمة التي لم تترك أمامهم إلا الهمود والفراغ ، أملاً أحيا في أعماق نفوسهم
قوة دافعة نحو العمل .

بعد خمسة قرون من ذلك العهد قام في الغرب إخوان غزاة الهند
بمجهود يشبه مجهود هؤلاء الغزاة ، حددوا على أثره مذهباً يشابه مذهبهم
مشابهة لا تجد في حوادث التاريخ أتم منها . وقد كان ما بين الفرعين القائمين
على الجذع القديم من فروق ضئيلة راجعاً إلى ما كان عليه آريو الغرب
من خيال أكثر توازناً وأقل عظمة ، ولما لقوه من طقس أكثر اعتدالاً وأشد
ملاءمة لمراة العقل . أما فيما سوى هذا فكانت المظاهر العامة لمنتجات
الفرعين متشابهة كل التشابه . وظلت أخلاق الرحولة وعوائدها حاکمة

مدى ألف سنة وخمسمائة على شواطئ البحر الأبيض حكمها في شبه جزيرة الهند . فمَلَكَ الإنسان القوى المسلح الأرض وحرثها وأقام المدائن واستأصل الأجناس الوضيعة أو استعبدها ، وأنشأ القصائد والأساطير والعلوم والأخلاق والفلسفات ثم تربع معجباً بنفسه يشاهد مثالا في قصص أبطاله وآلهته متصوراً كمال نعمته في تكميل ملكاته وزيادة سلطانه . وكما طمع البرهمي ليكون إلهاً في السماء فقد أراد اليوناني والروماني أن يكونا إلهين على الأرض . ثم انهار عملهم جميعاً بالتعالى في العواطف التي كانت سبب قيامه . فأصبح الإغريق الشهم الكريم متكلماً سفسطائياً وتطاحت المدائن الجميلة فيما بينها حتى ضعفت وسقطت في قبضة البرابرة الهمج المحيطين بها . وأصبح الروماني النشيط جندياً ثم عبداً لرؤسائه فانقلبت الإمبراطورية العظيمة التي امتد سلطانها بقوة ذراعه على عدد عظيم من الشعوب ، وصارت آلة استبداد منظم وقع هو كما وقع غيره بين عجلاتها ، وقد أهلك الاستبداد الأشراف بعد ما أهلك العامة وقامت القوة التي أعدتها الملكية العسكرية بين هذه النفوس الأسيرة حائلا حديدياً صلباً لا يفلح مجهود في تحريكه . فلم يعد ممكناً أن يطالب الرجل بعمل ما كان يقوم به من قبل أو أن يكون قوياً جريئاً أو أن يدفع عن نفسه أو أن يرد بالعدوان عدواناً . ذلك بأنه وقع في الفخ فتعطلت فيه تلك الجرأة القديمة المعروفة في هذه الأجناس المحاربة الأنوفة - وقد بحث الباحثون يرجون علاجاً لهذه الحال في البحر وفي الإنزلاق إلى الشهوات وفي الاستسلام المطمئن وفي الباطنية المشوشة وفي أحلام خلق الوجود وفي التأملات الفلسفية وفي سحر المشعوذين وفي نبوءة المرضى ، فلم يحرك ذلك كله إلا الذهن والعصب بينما كان هو القلب الذي يجب هزه بمس محرك جديد دافع للعمل . ولقد

تم ذلك فيما بعد على نحو ما تم في الهند فأخذت الأخلاق وجهة جديدة كالوجهة التي أخذتها في الهند « إذا ضربك أحد فلا تجزه جرحاً بجرح ، كأمر القانون القديم الذي يحتكم في الناس من ألف وخمسة سنة والذي لم يخلق منهم إلا محاربين وغالباً ومغلوباً . فكذاك ليس يكفي أن تطرح الغضب وأن تنزل عن التأثر وأن تحقر المهانة وأن تحتل الظلم صابراً على نحو ما يدعو إليه حكماء العصر . بل تلق برفق بين ذراعيك من ضربك وأدر له خلك الآخر ودعه يأخذ مالك وأعطه ما لم يأخذه وأجبه لأنه أخوك . فإن ثمة فوق هذه الممالك المنظورة ملكوت الله ، ملكوت الأمل الأسمى حيث لا ترى إلا رقة وتفانياً في الغير مخلصاً ، وإلا قلباً واحداً هو قلب الآب الذي يحكم ويحييكم . » وهذه هي العاطفة الكبرى التي أحييت الإرادة الإنسانية في أوروبا . وهي أكثر تحديداً وأقل تجريداً من العاطفة الهندية . فهي لا تمتد إلى الحيوانات ولا تعتمد على فكرة العدم العام . ولكنها أضبط وأصح من العاطفة الهندية لأنها تدع للعمل والأمل مجالاً أوسع ، كما لا تصل بالإنسان إلى السكينة الجامدة ولا للاستسلام الحسير والعدم الأخير ، لذلك كانت أشد ملاءمة لأذهان أكثر عملية من تلك الأذهان ، ولأرواح أقل من تلك الأرواح مرضاً ، ولخيلات أكثر اعتدالاً ، فهي أوربية وليست آسيوية . على أنها في أوروبا وفي الهند هي على كل حال مركز التقدم الإنساني ، وعلامة الساعة التي يصبح فيها الإنسان وكأنه حيوان هذب الألم وقهرته القوة بعد ما أسرف من قوته فيترك عبادة القوى الطبيعية ويستبدل بها إجلال القوى الأخلاقية ، ويتخطى فكرة الطوائف والفرق والامتيازات ليصور أمامه صورة إخاء بني الإنسان .

٣ - النظر

إذا بذرت حبة نمت متأثرة في نموها بعاملين مستقل كل منهما عن الآخر ، عامل القوى الداخلية التي تتكون منها البذرة ، وعامل القوى الخارجية المحيطة بها . ففي دخيلة البذرة شجرة وجهتها النماء . لكن شأن الأرض والجو الخارجين عنها أن يعينا طريق نموها أو يفسدها . كذلك ترى في كل دين فكرة جديدة لتصور الطبيعة ولتصور خطة سير الإنسان في الحياة . وهذه الفكرة الجديدة تنمى نفسها بمجهودها الخاص . لكنها في نموها تتجه وجهة خاصة بتأثير الظروف المحيطة بها . فالإصلاح الأخلاقي يصبح رويداً رويداً لاهوتاً منظماً يسهل على الإنسان أن يميز خلال فروع شجرته الضخمة التي خرجت من البذرة الصغيرة بين ما نشأ عن البذرة وما جاء عن طريق الوسط .

فأما ما يرجع إلى البذرة في النظر البوذي فاعتبار فكرة العدم مادة الأشياء وفكرة الخلاء (الفراغ) منشأ الأشياء وغايتها . وأما ما يرجع إلى الوسط فضخامة وتهتك الخيال الوفير الخصب الذي يكدر الأعداد والعوامل حتى يعتريه الذهول بين مضطرب خلانقه .

وقد خلف « ساكياموني » مبادئ أخلاقية وقصصاً مطمئنة كما خلف مبدأ التخلي قائماً على فكرة الخلاء . أما أتباعه الدينونيون الذين أقاموا بعد الوحدة في صوامعهم مسلحين بالفلسفة المحيطة بهم ومنذفين وراء ما يبدعه الخيال الباطني في تضخمه وانتفاخه فقد أقاموا مذهباً كالذي أقامه « دوريجين » و « دنيس » الأوربواجي ومجموعة من الأساطير أشبه بأساطير « دانت » و « دفوارجين » .

ويرى أتباع « بودا » أن ليس ثمة مادة أولى ولا مبدأ يتكون ولا إله خالق سبق الخلق . بل « إن القطع بوجود موجود أعلى خلق العالم وما يحتويه إنما هي من هرة المناقضين الست . ففكرة الموجود الثابت القائم بذاته تتناقى ومذهبهم تنافياً تاماً . وليس ثمة سبب أولى وإنما الطبيعة سلسلة لا تنتهى من الميلاد والهلاك واتصال لا نهائى بين أسباب هى النتائج ونتائج هى الأسباب وانحلال وتكون أزلى أبدى خالد . تلك هى وجهة نظرهم العامة التى وصلوا إليها مسوقين من جهة بفكرتهم الرئيسية : فكرة العدم العام ومن الأخرى بمشهد الأشياء الدائمة التغير . ذلك بأنهم قد أطرحوا الأسباب الثابتة فلم يبق لهم إلا سلسلة النتائج المتغيرة وقد سار خيالهم فى هذا الميدان شوطاً سبرى القارئ الآن مداه .

فى الحيز اللامتناهى عدد غير متناه من العوالم . ولو أن الإنسان أقام جداراً حول حيز يمكن أن يسع مائة ألف مرة عشرة ملايين من هذه العوالم ثم رفع هذا الجدار إلى أعلى قمة السموات وملأ هذا المخزن العظيم بحب الفلفل لما ساوى عدد هذه الحبات نصف عدد العوالم التى توجد فى إحدى ممالك السماء . ويقوم فى وسط كل عالم جبل ضخيم ذو سفوح أربعة : سفح من ذهب ، وسفح من بلور ، وسفح من فضة وسفح من زمرد . وهذا الجبل هو جبل (ميرو) الذى يرتفع تماماً أربعاً وعشرين ألف (يودشانا) فوق سطح ماء البحر وينزل مثلها فى جوفه . ويحيط بهذا البحر إطار من صخور مرتفعة تمتد وراءها بحر ثان تحيطه الصخور كذلك وتمتد بعدها بحار تحيطها صخور . ولكن البحار يقل عمقها والصخور يقل ارتفاعها حتى إذا كان البحر السابع والأرض السابعة التى هى أرضنا لم ترتفع الجبال أكثر من ست وسبعمائة (يودشانا) فوق سطح البحر . وهذه الأرض تشمل أربع قارات : القارة الشرقية وفيها يعيش

الناس مائتي عام وطول كل منهم ثمانى أذرع ، والقارة العربية وفيها يعيش
الناس خمسمائة سنة وطول كل منهم ست عشرة ذراعاً ، والقارة الشمالية
وفيها يعيش الناس ألف سنة وطول كل منهم اثنان وثلاثون ذراعاً . والقارة
القبلية وفيها يعيش الناس مائة سنة وطول كل منهم ثلاث أذرع ويحيط
بهذه المنطقة جدار شيد من الحديد تسطع من ورائه شمس أخرى ويمتد
بعده عالم آخر . وتقوم في وسط جبل ميرو من أسفل صخرة ضخمة نحتت
فيها . ثمانى (جهنمات) . وفي وسطه من أعلى تبدأ السماء بعالم الرغبة مقام
الآلهة الشامل لست سموات ماخلا الأرض ، ويحىء من فوقه عالم فيه أربع
مناطق قسمت حسب مناطق الإلهام الأربع . ثم يحىء من فوق ذلك العالم
الذى لا شكل له شاملاً أربع سموات كذلك . ويصل الخيال البوذى
في هذه العوالم الأخيرة حدّاً يكسده معه الملايين منها فوق ألوف الملايين
حتى يبلغ جمعاً مدهشة يجعلها بعد ذلك أساساً يصدر عنه لتكديس ما هو
أعظم وأضخم . ثم تراه يستمر على هذه الحال بلا انقطاع ولا رؤية حتى
يضطرب الذهن ثم لا يدرك شيئاً .

كل هذه العوالم من أسفلها إلى أعلاها مأهولة بالخلائق . وفي أعماق
دركاتها أهل (الجهنمات) الثمانى في طبقات بعضها فوق بعض ويحد أحسنهم
حالاً السكاكين والحراب مدى خمسمائة سنة . أما ما ينال الآخرين من
فضاعة العذاب وطول مدته فمزعج مخيف . على أن الخلود في العذاب
للتكفير عن الذنوب ليس مقرراً إلا عند سكان الجنوب من البوذيين الذين
يحكمون على المنشككة والكفار بالبقاء خالدين حول حائط يمتد في بحر
يحتل خلايا العالم ويلتهم أعضائهم ويبلعها . في مقابل ذلك ترى البوذيين
من أهل الشمال يضيفون إلى (الجهنمات) الثمانى المتهبة ثمانى (جهنمات)

أخرى من الصقيع يصعد أو يهبط من حل به الجزء أثناء هذه الأتونات بحسب ما يستحق . ثم يجيء البروناس في درجة من العذاب فوق درجات أولئك ، جميعاً . والبروناس قوم من العمالق ناشقة أبدانهم ، قبيحة مناظرهم ، واقفة شعورهم ، ذوو بطون عظيمة لا تشبع ، وحلوق أضيق من سم الخياط يتعذبون بأفطع الجوع وأقسى العطش ولا يكادون يسمعون « اسم الماء مرة في كل مائة سنة » ويأكلون جثث الموق أو ينهشون لحم أنفسهم . والبخلاء الذين لا يتقدمون لرجال الدين بإحسان هم الذين يصلون إلى هذه الحال التبعة . ويجيء الحيوانات في درجة ما فوق البروناس ثم تجيء من فوقها الآزوراس وهي الأرواح الخبيثة عدوة الآلهة . وإلى جانب هؤلاء يجيء مختلف أنواع الشياطين من عمالقة غلاظ وقصار وشعابين ضخمة وزواحف لها رأس إنسان وغيلان لها رأس فرس وحيات وطيور وهي تغوص في الماء أو تطير في الهواء أو تسعى على الأرض أو تجاور الآلهة أو تقوم على سفوح ميرو . ولكل جنس منها مملكة ولكل مملكة ملك . ثم يجيء الناس في درجة ما فوق الشياطين ويجيء الآلهة على طوائف وأداة هذه الطوائف أندرا وإخوانه من الآلهة العاديين للبرهمة . وآلهة هذه الطوائف يقيمون مسلحين فوق قمة الميرو ويدفعون الشياطين السفلى من غير انقطاع . أما السموات الأربع التي فوق ذلك فلا تمس عالمنا ولا تستضيء بشمس أو قمر بل بنورها هي . وفي هذه السموات توجد البوذات المقبلة التي تنتظر الساعة التي تنقضي فيها للمرة الأخيرة جسم لتقوم بنجاة العوالم . وهذه المنطقة هي الأخرى واقعة تحت حكم « مارا » أمير الشهوات ومستغوى البوذات . ولا سبيل للخلاص منه إلا بالارتفاع إلى المنطقة التي فوقها والدخول في عالم الأشكال النقية . وفي هذا العالم وجد البرهعات ثم آلهة النور الصراح وهم

يغوصون في بحر الإلهام الأسمى معفون من نير التفكير ، ويتخيلون من غير أن تتعاقب عندهم التصورات ، وفوق هذا العالم توجد الكائنات الطاهرة الفاضلة ومن فوقهم المخلصون الذين خلوا عن التحول وصاروا بمنجاة من الإحساس والألم . وفي الدرجة العليا تنفتح المناطق الأربع للعالم غير ذى اللون أو الشكل حيث تخفى الأجسام الأثيرة نفسها وتلك هى سماء البوذات .

وكل مادون هذه السماء الخالدة فى سكيتها واقع تحت حكم قانون التحول والتغير .

هذا ولم تطبق ديانة من هذه الديانات أثناء هذياناتها الشعرية مبدأها الأساسى من عدم ثبات الكائن بمثل ما طبقته الديانة البوذية من القوة ، ولا شرحت فكرتها المبدئية من أن كل كائن حى يحمل فى وجوده بذور موته بمثل دقتها . فهذا العالم ينشأ ويفنى ليحل محله سواه ليفنى هو الآخر ويحىء من بعده غيره ثم يفنى كذلك وهكذا بلا انقطاع ولا غاية . وكل نشوء وكل فناء يمتد إلى أجل من الزمان ما أعظمه . والدهر (الكالبا) هو الزمن الذى ينقضى بين إحدى تلك البدايات وإحدى تلك اللانهايات . وهذا الدهر بالغ من الطول حتى لو أنك أمررت قطعة من أرق حرائر برانس مرة كل مائة سنة على صخرة طويلا وعرضها وارتفاعها ستة عشر ميلا وظللت تكرر ذلك حتى تصبح الصخرة وحجمها حجم بذر الأمة « المنجوى » لما انقضى ربع مدى الدهر . وهذا الزمن الكبير يشمل أربعة أزمنة دنيا يتم الهلاك فى أثنائها ستا وخمسين مرة بالنار وسبع مرات بالماء ومرة بالرياح . وقبل وقوع كل هلاك بمائة ألف سنة ينذر الناس به وتى يدعوهم للتوبة والاستغفار ، وأعظم مرات الهلاك هى المرة الأخيرة التى

تسببها الرياح « فهي تصل من الفضاء إلى حد أن لا تبقى من العالم كنه ذرة واحدة مناسكة . ويبقى الفضاء إثر كل هلاك خالياً عبوساً . حتى إذا حانت الساعة قامت ريح فشقت سحباً فسقط منه المطر فأصبحت المياه شلالات فاستلأ بها الفضاء حتى يصبح أقيانوساً تحمى الرياح شواطئه ثم تستقر الأجزاء الصلبة من بعد ذلك ويحمد بفعل الرياح . وتنحسر المياه عنها فتظهر المناطق العليا : مناطق المخلصين والبراهمة والآلهة واحدة بعد الأخرى . أما سائر العالم فيصبح أهلاً بعد ذلك بالخلائق العليا التي بقيت بعيدة عن تلك الصدمات ولا يتم بعد نقاؤها وتدرج هذه الخلائق يكون في مراتب شتى : فهي تنقسم يادئ الأمر صورة موجودات بريئة سعيدة غير ذات شكل ولا جنس وغير محتاجة إلى شيء ، بل هي ثورية هوائية . ثم تنقل الأجسام من بعد ذلك وتفسد من غير شعور منها وترتكس في حكم الرغائب والشهوات فتقاصر حياتها إلى أربع وثمانين ألف سنة بعد أن كانت غير ذات نهاية أو تكاد . وهنا يتزايد الفساد فتقوم دعائم الملكية والحكومات والطوائف ويتدهور آلاف من الأحياء تنقلهم خطيئاتهم فيصبحوا ومنهم الحيوانات وشياطين الجوع ومن صبت عليهم اللعنة . وعند ذلك يصبح العالم كما تراه اليوم ويبقى كذلك ربع دهر يتراوح بين درجات مختلفة من الهبوط والنهوض متروكاً لنفسه طوراً وتعيه البوذاً طوراً آخر . وفي خلال هذا الزمن تتراوح الحياة الإنسانية ما بين عشر سنوات وثمانين ألف سنة بحسب درجات شرور الناس أو فضائلهم - ونحن في هذا الزمن في عصر من أقسى العصور . وكذلك تدور عجلة الوجود الكبرى . ولو نظرنا - - ونحن في ذلك الركن الصغير الضيق الذي تثبت به قوم على برزخ - إلى هوى الزمن عن جانبينا وإلى وهدة الفضاء الهائلة حولنا ،

إذن لما رأينا في كل النواحي إلا إمعاناً في تجدد التطور الخالد تجدداً يحل عن كل حد .

أى قوة تحفظ ذلك التجدد ؟ هنا تظهر الفكرة الخلقية التى يقوم عليها المذهب من جديد . فهذه القوة هى الفضل والنقص وهى الموجودة وحدها ، والموجودة حيث يكون الوجود . وليس فى هذه الفكرة شئ يشابه الأفكار اليونانية أو المحمدية أو المسيحية أو الحديثة . فليس ثمة قدر مستقل يحكم حياة الكائنات وإنما يصنع كل كائن قدر نفسه بفضيلته أو برذيلته . وليس ثمة قوانين طبيعية تربط الحوادث وإنما يربطها القانون الخلقى . وليس ثمة إله مستبد يوزع الخير والشر بقوانين تحميه ، ولا إله عادل يوزع الخير والشر مثوبة أو جزاء ، ولا إله يدخل بين الفضيلة والسعادة أو بين الشقاء والشر ليفرق بينهما أو ليجمعهما . وإنما تتصل السعادة بالفضيلة طبعاً ، والشقاء بالرذيلة طبعاً ، كما يتصل الظل بالجسم . وكل عمل فاضل ، وكل عمل قوة من قوى الطبيعة . ومجموع الأعمال من فاضلة ومردولة هو وحده مجموع قوى الطبيعة . « والنقص العام الذى يثقل مجموع الأحياء هو السبب الحقيقى لهلاك العالم . والفضل العام الذى تمتاز به كل الأحياء هو السبب الحقيقى لتجدد كيانه » . ويتصل كل عمل بصاحبه اتصال الثقل أو ما يضاذه . فالعمل السيئ يجر صاحبه لا محالة إلى الدرك الأسفل ، كما أن العمل الصالح يرتفع لا محالة بصاحبه إلى عليا درجات العوالم . وعلى نسبة هاتين القوتين يتحدد مكان صاحبهما على أثر كل ميلاد ويتكيف حظه عند كل تقمص كما يكون رجحان إحدى كفتي الميزان بنسبة ما يكون فى كل منهما من الأثقال . فما دامت الروح تحت سلطان الشهوة فهى تولد من جديد . وكلما ازداد سلطان الشهوة عليها كانت

عودتها للحياة أنعس حالاً وأشقى ، والتعلق بالأشياء وما يترتب عليه من سيئ الأعمال هو وحده سبب تجدد الميلاد ، ويكمن فيه ذلك الثقل الذى يدفعنا إلى دركات هوة الحياة السحيقة الأليمة بقوة . ولهذا كان فى مقدورنا أن نتخطى القدر العام بإعدام هذا التعلق فننجو من تجدد الميلاد ونصل إلى الخلاص الأخير . وهذا مقام من الرفعة فى العالم بمكان ولم يوضع الإنسان فيه أبداً . والإرادة عند البوذيين قوة لا حدَّ لها تسمح للإنسان أن يصل إلى الذروة من الأشياء وأن يدخل النرفانا وأن يسمو إلى ما فوق الآلهة .

أما تلك السماء البديعة وهذا العالم غير ذى اللون ولا الشكل ، حيث تقوم البوذاة الكاملة وحيث تنهزم الطبيعة ويتم الخلاص ، ففيها مناطق أربع : منطقة فضاء لا حدود له حيث تمتد الحياة عشرة آلاف دهر كبير . ومنطقة الحكمة لا حدود لها حيث تمتد الحياة أربعين ألف دهر كبير . والمنطقة التى لم يبق فيها شيء مطلقاً وتمتد الحياة فيها ستين ألف دهر كبير . والمنطقة التى لم تبق فيها فكرة ولا لفكرة وتمتد الحياة فيها ثمانين ألف دهر كبير . ومن بعد ذلك تمتد النرفانا واللاشيء الصراح والقضاء الكامل . وتدرج المناطق على هذه الصورة يبين لنا خطوات تقدم الصفاء الباطنى . فترى التأمل يتضاءل ويفنى شيئاً فشيئاً حتى يصل رجل الدين بعد تركيز فكره عند نقطة ثابتة وبعد وقفات عدة إلى أن يطرد من ذهنه أفكار « المقاومة والشكل والاختلاف » وإلى أن يقصر تصويره على الفضاء الفرد الذى لا حد له ثم لا يلبث هذا الفضاء على عظم بساطته أن يفنى هو الآخر ولا يبقى منه أمام نظر المتدين إلا الفكرة غير المنتهية ، أو بالأحرى التصور غير المنتهى ، ثم يختفى ذلك كذلك ولا يبقى أمام نظر المتدين شيء مطلقاً .

وعند ذلك يقف تصويره ولكنه لا يزال قاصراً عن الجزم بأن ليس ثمة شيء ، وهذا الجزم شيء في ذاته ، فيعدم الجزم أيضاً . وعند هذا المرتقى لا تبقى فكرة ولا تبقى لفكرة « بل يقف الفكر والتصور » ويكون الذهن قد أحل الفضاء في نفسه ملاًشياً . واحداً بعد الآخر ، الأشياء المختلفة والأفكار المختلفة وكل شيء وكل فكرة حتى تتبخر مادته وحتى يصل تحت هذا الامتصاص الشديد إلى درجة العلم الصرف . وتلك هي الغاية والتام والكمال الأعلى . فالخير الأعظم ليس في الخروج من الحياة فحسب ولكن من الوجود كله . وإلى هذا الخروج تصبو البوذاة خلال ملايين تطورات وجودها فتبلغه بعد توضحيات وأنواع من الزهد لا أحد لها ، من ترك المال والحياة والجسد ، بل ومن ترك جسد وحياة أقرب من يحبون من زوج وولد .

ويجب لكي نفهم مثل هذا المذهب أن نقرب كل عاداتنا الغربية رأساً على عقب ، وأن نمحو كل الألوان المظلمة التي تحيط بها فكرة الفناء ، وأن لا نعبر بما عبر به باسكال من أننا نوضع أمام بؤسين متعادلين حينما ندعى إلى « الاختيار القاسي بين البؤس الخالد والفناء الخالد » وإنما تلك قواعد تصلح للأجناس القوية النشيطة المتحمسة في التمسك بمطالبها والتي تحفز جودة طقسها أو قسوته نفوس أهلها وتدفعهم ربح القوة وروح الأمل إلى الأمام . أما أساس المذهب في الهند فقاتم على أن التغيير يدعو للألم وأن الرغبة أس الشقاء وأن الحياة شر وأن فكرة السعادة تقابل الخلاص والطمأنينة . لذلك كانت الصورة المرضية التي تدور في نفس الإنسان أثناء أحلامه أن لا يزعبه مزعج ، وأن لا يحس شيئاً ، وأن يبقى أبداً في طمأنينة متشابهة . صحيح أن الأذهان العقل وعامة الشعب ، وبنوع

خاص من سكان آسيا الشمالية الخشنيين . أولئك كلهم لا يتصورون هذه العقيدة في صفتها التجريدية ويأبون إلا أن يروا في الترف طمأنينة مادية ونوعاً من السرور المحسوس . ولم يعارضهم أحد في هذا التصور قصداً وذلك لأن كل مبدأ يراد به أن يكون عاماً مضطراً للتوافق والتلابس مع سواد الشعب . على أن الفكرة الأصلية باقية على الرغم مما يغشاها في بعض المواضع من التغيرات . وهي كما هي لا تزال ذات جمال يجذب قلب الإنسان ويجعله يحس لذة كبرى حين يصور لنفسه هذه المناطق الرفيعة المطمئنة البعيدة كل البعد عن أن تصل إليها الاضطرابات الأرضية . وهذه الأجسام الأثيرية التي ترتفع من سماء إلى سماء فتزداد أثناء ارتفاعها طهرًا ونورًا وهؤلاء السعداء تظل فكرتهم ثابتة مطمئنة خلال آلاف آلاف القرون ويشعرون أثناء ارتفاعهم بتساقط حواجز وجودهم لتفنى في الفراغ الهائل . وهم في ذلك كمنقط الماء تبقى آلاف الملايين من السنين تثلج وتسيل وتمتع وتضطرب باضطرابات أرضنا العظيمة ثم تنتهي بأن ترتفع بخاراً يتهاذى بديعاً تحت الشمس التي تحيله ذهباً ثم تزداد ارتفاعاً وندرة حتى لا يظهر إلا كالحجاب الشفاف الناحل ويستمر في ارتفاعه بعد ذلك حتى إذا وصل إلى المناطق التي لا تصلها الضجة والتي ينتهي فيها التغير وتنتهي فيها المادة تلاشي في فضاء الجو العظيم من غير أن يحس بتلاشيهِ .

ولقد وصلوا إلى أبعد من هذا مدفوعين بما يمتاز به النظر الهندي من التعمق الذي يصل من كل مذهب إلى أقصى غاية يمكن الوصول إليها . وإليه والحق يقال نواجع في العبقرية التجريدية حتى لسترى اليونان إلى جانبهم . على ما بلغوا من دقة ، على جانب من الاستحياء والحيطة . والإنسان لاشك في حل من أن يقول غير مبالغ إن الذهن الإنساني لم يخترق

أعماق الأشياء وجوهرها إلا على شاطئ الجنج والأسيرى ، فقد طرحت المسائل العليا هناك من غير مبالاة بما يترتب عليها من النتائج الطائشة . أما فيما سوى ما هناك فلم يفكر أحد في إمكان عرض هذه المسائل . وقد أقدم الفلاسفة البوذيون على المساس بالغاية التي يرمى إليها مذهبهم ، ولو أنك عاجلت طبيعياتهم المتبدلة ومناقشاتهم العوجاء ووصلت من ذلك إلى تبين آرائهم العامة إذن لرأيت أنهم ، على الرغم من أسلوبهم ، ومن ثرثرتهم النافهة ، لم يخشوا شيئاً وأنهم فهموا كل شيء : فهموا إمكان حدوث التغير وإمكان كون الموجود مع محتم انقطاعه عن الوجود أو إمكان ابتدائه إذا لم يكن . وكيفية انقلاب كل من الوجود والعدم في لحظة معينة إلى ضده بدل بقاء كل منهما على طبعه . وكيف نفهم أن جوهر الشيء ينحصر في مناقضته لنفسه وفي إعدامه إياها ؟ وهذه المسألة الأخيرة نتخطاها نحن اليوم ، بل ولا ترد ببال الأكثرين من مفكرينا الذين يدعوننا جانباً في عالم الإطلاقات العقيمة المجردة مع أنها هي أم كل المسائل . وفيها فصل البوذيون - بقوة منطقية تدل على مبلغ إحساسهم بصعوبتها - قصدهم أن الوجود وكل الشرور تنتج عن اثني عشر مبدأ ، وأنه إذا أمكن إعدام أحدها انعدم ما يتبعه مثلما يقطع الرجل الشجرة عند ارتفاع معين منها فيأتى بذلك على كل الفروع الناشئة فوق هذا الارتفاع . والجهالة هي السبب الأساسى للشرور . ولا يقصد بالجهالة ما تعارف الناس عليه منها ولكننا يقصد بها ذلك الخطأ الأصيل الذى يجعلنا نعتبر أن ثمة شيئاً حقيقياً . فذلك هو الوهم القديم وهو أصل الوجود وكل بلاياه . إذ ليس ثمة شيء حقيقى ، وليس ثمة وجود ، وإنما الكل فراغ وقضاء .

وعلى هذه النظرية بنى مختلف فلاسفة البوذيين وشادوا طبقة بعد طبقة .

فقرر بعضهم أن الأشياء لا وجود لها إلا في البرهة التي تراها فيها . وقرر آخرون أن الأشياء لا وجود لها البتة وأن ليس من شيء خارج عن الإحساسات الداخلية . وقرر غير هؤلاء أن هذه التصورات نفسها لا وجود لها وأن ليس في داخلنا ولا خارجاً عنا إلا اللاشيء والعدم المطلق - وفوق هذا الفضاء تخرج مظاهر غاية في الغرابة تمتد في أقصاها سواد عظيم ساكن تنشر فوقه خزعبلات بأشكال وألوان مضطربة . فمن اخترق أعماق هذه الحقيقة وجد أن لا معنى لكلمات الشباب والموت والنور والظلام والشكل والحجم والزمان والمكان ورأى أن كل الصور وكل الأفكار العامة ليست إلا أحلاماً مضحكة . وإذا ذاك يصير شأنه شأن البرهمي الذي يرى العالم سراباً خداعاً يروج على سطح الموجود الثابت ، وآلاً كاذباً يلعب فوق العدم الخالد في سكينته فيحتقره وينأى عنه بجانبه . وبذلك يتم خلاصه وتحقق لحاجته ويرتفع فوق كل الأعمال ويمسك بيده الحقيقة العليا . وتلك هي غاية ارتفاع الحكمة « وشرع الشرائع » والمذهب الكمين في النفس بحيث لا تعتبر القواعد المتعارفة إلا تحضيراً مبدئياً . وأنت ترى أن ليس هنا من شيء ناقص ، فلا البحث الصوفي الذي يحسب الوقت ويقيسه إلى حد يذهل البحث دين ما كرس من إعدادة . ولا البحث الفلسفي الذي يستخلص المبدأ ويتبعه حتى يصل عند منتهى قواعده إلى الذهول وسط كل ما أنتج بسبب عظم المجهود الذي قام به

٤ - العمل

توجد في الأنظمة كما توجد في المبادئ قوة كمية هي السبب في نموها ، فالرسول يتحول ويتكامل كما تتحول كلمته وتتكامل حتى ينشأ الأمر بأن تقوم الكنيسة إلى جانب اللاهوت (الكلام) . لذلك ، فيينا يقوم القائمون بجمع المذهب وترتيب أجزائه وبالتعليق عليه بمعونة المنطق والخيال والعلم العصري وبتفخيمه بالشعر وبثبितه بالقواعد وتعظيمه بالفلسفة ، وبينما تصيح الأفاضل والنصائح والخطب التي يلقيها المعتزلة تحت الشجر مجموعاً ضخماً من مضاربات نظرية تشمل كل ما في العالم من منظور وغير منظور . يقوم من الجانب الآخر من معنى بوضع النظام وتحديد واجبات أعضائه ووظائفهم وترتيب ذلك وتوسيعه حتى يرى العالم حكومة عظيمة تقوم رويداً رويداً مشتملة الجمعية بأسرها في دوائرها المتباينة . وكذلك تنتهي الحال بأن يقوم البناء الكنائسي . وقد قام العمل المستمر على مر القرون إلى جانب البناء الروحي ، يتقدمان جميعاً إلى الإرادة وإلى الفكرة الإنسانية ويتحكمان فيهما ويصبحان للإنسان ملجأً وسجناً .

والطريف والجوهري في نظام « ساكياموني » أنه أنشأ نظاماً جامعاً للمتدينين . فقد كان المتصورة والمعتزلة موجودين من قبله ، لكنه كان أول من جمع هؤلاء المشتتين في وحدتهم بأن نادى إليه كل ذوى العزم من الرجال بلا تمييز بين جنس أو طائفة . ثم أنشأ منهم نظاماً متسولة اعتزل أهله الملك والأسرة وندروا الفقر والطهر ، فكانوا النواة التي أظهرت اتفاق النظام الأساسي مع المبدأ الأساسي اتفاقاً يجعل الأول يقتضى الثاني اقتضاءً ويظهره

محسوساً وينبئ عليه بدقة لا يجعل محلاً للاختلاف بينهما إلا بمثل ما يختلف الظاهر عن الباطن . إنما تتكون مثل هذه الجماعة لتزع الإنسان من أثرته وأنايته فتسلمه إلى التشف والزهد . لذلك كان من زهد من الجماعة متسولاً دينياً . وفي تلك العصور القديمة سمح للناس من كل الطوائف والمراكز والأعمار كما سمح للأرجاس والمجرمين والشيوخ والمرضى أن ينضموا للجمعية الجديدة ماداموا يؤمنون ببوذا أو يهجرون العالم ، أما المتدينون فلم يسمح لهم أن يلبسوا إلا ملابس قذرة مكونة من رقع تجمع من المقابر ومن فوق أكوام القذر ويخاط بعضها إلى بعض . وقد أقام بعض هؤلاء المتدينين في الغابات ، والتجأ بعضهم إلى جذوع الشجر ، وظل آخرون في الفضاء ، ونزل البعض في المقابر . ذلك أنه كان من واجب المؤمن الصحيح الإيمان أن يشابه حيوان الغاب فلا يستقر إلى مأوى ويطعم غذاء في غير المكان الذي أطعم فيه اليوم وينام أty وجد . ولكن المتدين كان يحيط نفسه دائماً بجماعة من الصحاب ليؤدى ما كان مكلفاً به من تعلم الناس الحقيقة ودعوتهم إلى الدين الجديد . ثم تطورت هذه الجماعات الصغيرة المتنقلة من غير شعور منها وأصبحت جماعات كبيرة ذات مقام ثابت . ونزل المعتزلون المتنحون إلى الغابات من عزلتهم وتضاموا احتفاء من شرور البراهمة . ولما كانت النساء كالرجال مدعوات لاعتناق الحياة الروحية فقد كن مدفوعات بطبيعة جنسهن للاحتفاء في الجدران ، واضطر المتشفة أيضاً للدخول إلى المدن إبان فصل الأمطار . وبذلك انتهى أمر الجماعات الدينية التي كانت تعمل لإقامة الدين فأصبحت لها مراكز ثابتة . وعلى هذا النحو تكونت الطوائف وقامت الكنيسة . ثم انتظمت الكنيسة رويداً رويداً فرسمت قوانينها ووضعت قواعدها وقررت شرائط الانتساب لها .

وغالب الأمر اليوم في من يتقدم لهذه الكنيسة أن يكون طفلاً قد حلق رأسه واعتزل ليحضر أمام القسيس الذي اختاره أباً روحياً له فيبدي إرادته في التنصل من الأشياء فيلبسه القسيس الثوب الأصفر ويقص له مؤخرة شعره ويلقى عليه القواعد العشر لدراستها . ويبقى هذا الفتى إبان تمرينه تلميذ أبيه الروحي وخادمه . فإذا بلغ العشرين من العمر وتعلم عدداً معيناً من الطقوس والصلوات رقى متديناً ودفعت إليه المظلة وتسلم الوعاء المعد لتلقى الإحسان وارتدى صدرية وقميصاً ينزل إلى ركبتيه ومعطفاً يعلق على كتفه الأيسر ثم ذهب متمسولاً يأخذ في وعائه الطعام الذي يدفع إليه ويأكله في الوعاء نفسه ، وذلك كل ما له وما عليه ، لأن القاعدة المقرر عليه اتباعها تدفع به إلى التخلي عن كل شيء .

وهو - جرياً على هذه القاعدة - يترك أهله ويصبح ولا وطن له . ويحتم عليه أن لا ييكي موت أبيه ولا وفاة أمه . ويظل ولا زوجة له ولا ولد . فإن كان له زوجة أو ولد تحتم عليه تركه لأن الخطر على المتعلق بزوجة أو ولد أو مال أو بيت أكبر من الخطر المتعلق على رأس المسجون المغل في الأصفاة . فقد تصادف هذا الأخير فرصة سعيدة تخلصه من سجنه على حين يبقى الآخر كمن يكون بين فكي نمر . ثم إن أعرق أصول الشر اشتباه المرأة ، ولو أن في الإنسان شدة وقوة مثل ما فيه من شهوة ما كان لأحد إلى الخلاص من سبيل . فلا تنظر أيها المتدين إلى النساء ، وإن لاقيت امرأة فاعرض من طرفك ولا تخاطبها ، وإن أنت خاطبتها فاذكر دائماً في دخيلة نفسك أنك متدين وأن من واجبك أن تكون في هذا العالم الفاسد كالزهرة النقية البياض . ويجب أن تنظر إلى المرأة العجوز وكأنها أمك ، وإلى من هي أسن منك وكأنها أختك الكبرى ، وإلى من هي أصغر

منك سنًا وكأنها أخحك الصغرى . والأوامر البوذية في هذا الشأن عدة : فلا يصح لمس يد امرأة ، بل ولا يد فتاة ولا الدخول في زورق تملك امرأة بمجاديفه ولا أخذ الإحسان من يد امرأة .

هذا والأمر في شأن التملك يوازى الأمر في شأن الملذات صرامة وشدة . فليس للمتدين أن يملك سوى أشياء ثمانية : فالقطع الثلاث التي يتكون منها لباسه ، ثم مشد وسطه ، ووعاء الإحسان ، وقدر الماء ، وموسى وإبرة . وعليه أن يعيش من الصدقة من غير أن يطلبها وإنما يتقدم بوعائه من غير أن يحدث أى حدث أو حركة تدل على وجوده ، ومن غير أن يبدى أنه جائع ، ومن غير أن يطلب شيئاً بإشارة أو بحركة أو بكلمة . ثم إنه يرتكب خطيئة إذا هو أخذ أكثر مما يلزم لأكله . وليس من حقه أن يطعم شيئاً بعد الظهر أو أن يتناول الطعام للذته . وإذا مرض لم يكن له أن يطلب دواء . وليس له أن يأخذ ذهباً أو فضة أو أى متاع آخر ، وإنما للدير وحده حق التملك .

أما الأمر الثالث الخاص بالطاعة فالتشدد في شأنه أقل منه في شأن الأوامر الأخرى . ولئن وضعت القواعد المتدين تحت أوامر رئيسه وألزمته في غير موضع الطاعة والاحترام فإنها كانت من ناحية أخرى تأمر بوجوب التوفيق وتعتبر كل قائل بالفرقة بين المتدينين مرتكباً لإحدى الخطيئات الخمس القتالة .

ذلك هو الإنسان في نظر البوذية العميقة ، غير أن للتهاون والفساد في الحياة العملية ولا شك نصيباً . وقد عمل الجدل ليطوى القواعد طياً تتفق به مع الطبيعة كما انتشرت المفاصد التي نخرت أديرتنا أيام العصور الوسطى في معابد ميلان والتبت والصين أيما انتشار . لكن ذلك كله لم

يمنع فكرة بؤسا أن تتم ولم يحل دون نظامه أن يغمر الإنسان كما تغمر « المونة » البناء فتسد فيه كل منفذ يمكن أن تنفجر منه يتابع الشهوة أو قوة الرغبة .

والآن فما هو مصير هذا الإنسان المنظم المخفف الشهوات . وماذا ترى عساه يصنع ؟ إن كل تغيير في الطبيعة الإنسانية يجر إلى تغيير يقابله في الجمعية الإنسانية ، ومصلح الفرد يصلح الجماعة بالتفاعل . لذلك جر نلطيف الفرد إلى إدخال السلام على الحياة الاجتماعية لحظرت التضحيات الإنسانية التي كان البراهمة يقومون بها وألغى حكم الإعدام بشهادة السائحين للصينيين الذين زاروا الهند في العصور الوسطى وانقطع الناس عن التضحية بالحيوانات وهجر الملوك والأمراء الذين اعتنقوا المذهب الجديد مسارح الصيد الفتاك . ثم غلا المذهب بعد ذلك حتى لم يكفه منع حروب الاستيلاء فمنع كذلك حروب الدفاع . أما الصدقة فقد صارت واجباً يؤدي حتى إن ملوك البوذيين في اجتماعهم العام كل خمس سنوات كانوا يعطون كل ما توافر لديهم ، بل وجواهرهم ، للمساكين واليتامى ومن لا عائل لهم ، وذلك عدا ما كانوا يعطونه للمتدينين . ثم إنهم كانوا ينشئون المستشفيات وملاجئ الفقراء والتكايا ويفرسون أشجار الفاكهة ويعفرون مجارى الماء للسائحين وعابري السبل . وكانوا يقيمون ملاجئ للحيوانات كما كان بعض الأتقياء في سيام ومنغوليا يفتدون العصافير والأسماك ويعيدونها إلى حريتها . وكان غير هؤلاء يبنون ملاجئ يضعون فيها الطعام لحيوانات الغاب خصوصاً إبان فصل نتاجها .

على أن ما كانت تنطوى عليه هذه الجلة الأخلاقية من التسامح كان يزيد أمرها غرابة ، فقد كان البوذيون حسنى الظن والرأى في الديانات

الأخرى . وكانوا يعتبرونها جميعاً أشكالا دنيا من الحقيقة الحققة حتى لقد أمر « درما سوكا » أول عظماء ملوك البوذيين و « قسطنطين » الديانة الجديدة بتبادل الاحترام والوثام بين جميع الطوائف وبأن يكون أتباع كل مذهب أغنياء في الحكمة سعاداء بالفضيلة ، ثم ذهب البوذيون لأبعد من هذا فامتدت عاطفة المحبة عندهم إلى كل الأجناس كما امتدت إلى كل الطوائف وصار الأجنبي يعامل بينهم كما يعامل ابن الوطن ولا يبعد ولو كان مبشراً مسيحياً . ولقد شرب السائح « تربيز » الشاي في وعاء كان يشرب فيه اللاما الأكبر . ولم يبق عندهم أطهار ولا غير أطهار .

وقد كان من أثر ذلك كله أن استفادت الحياة العائلية من احتكاكها بالقانون الجديد على الرغم من اعتباره إياها في المحل الثاني ، فقد جاء في هذا القانون : « خير أن يكرم الإنسان أباه وأمه من أن يخلم آلهة السموات والأرض . ولو أنه حمل أباه على كتف وأمه على الآخر مدى مائة عام لما جزأهما بذلك عما قدما إليه » فكذلك قد تحسنت حالة النساء وزال اعتبارهن رقيقات كما كان الشأن في البلاد الإسلامية ، أو « أوعية رجس » كما كن يعتبرن في البلاد البراهمية ، وسمح لهن بالخروج والتزاور وطرح الحجاب ، وأصبح الزواج من واحدة قاعدة وأمراً .

وليحيط الإنسان بكل التطور الذي حصل يتحتم عليه أن يلاحظ ما تم في منغوليا والتبت وسيلان والممالك الأخرى التي امتد سلطان الدين الجديد فيها . فكلنا نعرف « جنكيزخان » و « تيمورلنك » وقسوتهما وتخزيهما ، ونعرف ما شادا من أهرامات حجارتهما رؤوس الرجال ، ومن أبراج جدرانها الأجساد وموتها الدماء . أما اليوم فجرائم القتل والنهب نادرة في منغوليا ندرتها في أوربا المتمدنية . وكذلك أصبح اليوم أهالى التبت

الذين ظلوا تحت تأثير طقسهم العبوس العقيم في درك الوحشية المخجلة والذين كانوا يأكلون موتاهم كأنهم ذئاب الثلوج الجياع - شعباً رقيقاً متعلماً ، بل يكاد يكون متمديناً . أما أهالى سيام فقد رقت فظائع ضغفهم وخفت اعتداءاتهم الدموية وعشهم وقسوتهم إلى حد أن لم يبق في بانكوك - وهى مدينتهم الأولى يقطنها أربعمئة ألف من السكان - نزاع ولا شجار ، وأصبحت جريمة القتل فيها حادثاً غريباً لا يرى أغلب الأمر مرة في كل مائة سنة . والخلاصة أنك في حل من أن تقول إنا لو جمعنا كل ما فى حياة آسيا المدنية والمنزلة اليوم من دعة ورقة لكان لنهر البوذية الحظ الأكبر من ماء بحر السلام .

على أن البوذية لطفت الإنسان باستهلاكها نفسه . وقد كان شأنها في ذلك شأن الإنسان يصل بالحيوانات المتوحشة من أثوار وأعتر لتكون ناعجاً وعجولاً . نجس في حظيرة لتعيش عيش الإخاء وتعاد إلى مرعاها ساكنة مطمئنة الخطى . فإذا صح أن هذه الحيوانات تصبح في حالها الجديدة أقل من قبل إضراراً بعضها ببعض ؛ إلا أنها تصبح مع ذلك خلاق محترقة وضبعة . ولو أنك قارنت الكتابات البوذية بالكتابات البرهمية لهالك الفرق من أول نظرة . فقد اندثرت فخامة شعر البورانات ، ونجا الاندفاع ، وخذمت تلك القفزات الذهنية التى كانت تحيط في لحظة بالسما والأرض والعالم كله وتشارك في عظمة الطبيعة وخصبها ، واضمحلت عظمة الشعر ورواده ، وخفت روح « مانو » العظيمة وذهبت رقة الرباعيات الشبهة وولت تلك القوة النادرة التى كانت للعاطفة وللإبداع القديم . وأصبحت الكتب البوذية - ومعظمها من كتب القساوسة - مسبهة مضطربة تذكرنا بسقوط القرن الخامس عشر المدرسى وبهوس الثروة البيزنطية . ودل علم

تماسك الأسلوب على أن الإنسان أصبح لا يستطيع التفكير فجعل بعيد أدلته ويكررها بتطويل وإملال . وصار الحوار والجدل عنده أشبه بما يكتب في كراسات التلاميذ ؛ ولم يبق له شيء من الآراء المحيطة العامة الملهمة للحظتها ، وانقطع كل جميل وكل عظيم عن أن يدخل إلى نفسه دخول البرق في النظر . ووقف عند تكديس المكررات تكديساً يخيل إليك معه أنه جالس يعد ويعد ملايين الملايين حتى يذهل تحت أكداش الأعداد ، ولم يبق لبوذا على نحو ما يصوره البوذي فوق محرابه شيء من الرجولة وإنما هو جسد رخو سمين يشبه صدره وبطنه صدر المرأة وبطنها ، ويتم مظهره عن سكون بليد وطمأنينة راضية يصلان إلى حد الانسامة البلهاء .

من السهل أن يفهم الإنسان أن أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكونوا قد وقفوا في وجه السلطة ، بل ومدوا بأعناقهم للاستعباد مثلما فعل أهل القرنين الرابع والعاشر في أوروبا . وكما انشطرت الجمعية المسيحية في القرنين الرابع والعاشر كذلك انشطرت الجمعية البوذية إلى شطرين : سواد الشعب وتلك هي الطائفة المنحلة التي ظلت مرتبطة بالعالم وبالأسرة وبالعمل وبقيت عاجزة عن الوصول إلى الدرجة الرابعة من درجات القداسة . والمتدينين وتلك هي الطائفة الرفيعة العاطلة غير ذات الأسرة والتي هجرت خيرات الأرض وشغلت بتحصيل الفضائل الروحية .

ورجل سواد الشعب مكلف أن يطعم المتدينين . وقبول المتدين الإحسان من رجل السواد إحسان إليه . ذلك بأنه لو أتيح لأحد رجال الشعب أن يملأ بالجواهر السبع ألفاً من ثلاثة آلاف العوالم ثم قدمها لمتدين لما عدلت شيئاً إلى جانب الخزائن الروحية التي يشركه المتدين فيها بقبوله عطاءه . وكلما ازداد المتدين فداسة كان العطاء أكثر مثوبة . لذلك كان إطعام

متدين أكثر مثوبة من إطعام ألف من سواد الشعب المؤمنين . وطعام قديس من الدرجة الرابعة^(١) أكثر مثوبة من إطعام ألوف من سواد المتدينين . وإطعام « بوذا » في يد بوديه أكثر مثوبة من إطعام مئات الألوف من متدني الدرجة الرابعة . وإطعام بوذا كامل أكثر مثوبة من إطعام مائة ألف من البوذات المبتدئين . ويكفي أن يلتقي الإنسان النظر على هذا التدرج العددي وحده ليرى مبلغ ما كان لإكليروس البلاد البوذية من المكانة وما حصلوا عليه من ثقة . ثم إن السواد من أهل منغوليا والتبت المتحمسين كانوا يركعون أمام المتدينين المشهود لهم بالقداسة رجاء قبول ما يقدمونه لهم من النذور . وكان المتدينون والمتدينات يقدرون بخمس عدد سكان التبت وبثلث سكان منغوليا . كذلك نص في الشرع على أنك تصل إلى أرفع درجات الحكمة إن أنت أكرمت اللامات ؛ كما أنك تضيّع . إذا أنت واجهت المتدينين بإهانة ، كل ما كسبه من فضائل مدى آلاف عدة من وجوداتك » . وهذا النص يزيدك بياناً كيف كانت حال الجمعية الإكليركية في سداها ولحمها . فإذا أنت لاحظت أخيراً أن اللاما الأكبر يعتبر في تلك البلاد صورة لبوذا وإلهاً على الأرض ، إذن لرأيت بجلاء مبلغ التحكم الإكليري تحكماً يشابه ما كان في أوروبا في القرن الثاني عشر حين وضع الإكليروس يده على ثلث الأراضي في إنجلترا وعلى نصفها في ألمانيا ، حين أقام البابا نفسه سلطاناً على الملوك والقيصرة .

للطاعة وللوهم مصدر واحد . ذلك بأن الذهن المضطرب الأعصاب العاجز أن يحكم بنفسه سريع إلى أن تحتله العقائد الجنونية ، وهو يهوى إلى لجة الوهم والحلم بسبب حرمانه التمييز ، ويؤدى به ضعفه ليرتكس

وسط التخيلات الصيبانية . وليس شئ يعدل أوهام البوذيين في سرفها وتطرفها حتى لنجل معجزات الأسطورة الذهبية (La legende Dorée) عن الاقتراب في السرف منها . فإنك تراهم يدكون الأرض دكاً ويتعذبون بسير آلاف ملايين الآلهة يتحكمون في السماء والأرض ، كل ذلك مع الإسراف في المبالغات الصيبانية والثروة القديمة العقيمة التي تسرع بك إلى التفرز .

والولى والقديس البوذى قدير على الإتيان بالمعجزات ، قدير على أن يحيط نظره بكل الخلائق وبكل العوالم ، قدير على أن يسمع كلام العوالم جميعها وكل ما فيها من ضجة . ثم هو عليم بأفكار كل الموجودات ، ذاكر لكل حيواته السابقة ولحيوات كل من سواه . وللبوذات المبتدئين والبوذات الكاملين ممن تسمو مرتبتهم على مرتبة الأولياء قسرى أغرب وملكات أعجب . ولو شاء كاتب تطير ما يمتاز به البوذا الكامل لامتلت صحائف كتابه من الأرض حتى تصل إلى سماء برهمة فيحسبه من علامات الجمال ، اثنتان وثلاثون علامة ممتازة وثمانون علامة ثانوية . ولذهنه ثمانى عشرة مستقلات Dependence وسبع وثلاثون مجموعة Accompanements وأربع أسس ثقة وعشر قوى . فإذا انتهى البوذيون من تضخيم إلههم على هذا النحو عادوا إلى تحليله . وعادوا إلى ذلك بادعاء ثقيل يعيرون به اندفاعهم الأخرق .

طبعي أن يؤدي ذلك كله بهم إلى الجحود وإلى العبادة الآلية . فإن ذهن المكدود ميال للاندفاع الأعمى في هذه السبيل . وهو يميل إلى ذلك برغم ما وضع به صاحب المذهب السلام في دائرة الإحسان والزهد وحكم النفس ، وبرغم تنزيهه الدين عن المظاهر الخارجية . ذلك لأنه ما دامت

النظرة الثاقبة الحرة التي تميز بين الشكل والموضوع مفقودة فإتما يستمسك الرجل بالشكل إذ يجد الإمساك بالشكل المنموس أهون من الإحاطة بالحقيقة غير المنظورة . ومن هنا تنقلب العبادة عنده تقديساً للأصنام فيركع أمام بودا وسواه من الأولياء ويقم لهم صوراً وتماثيل عدة ، ويؤدى إليهم فرائض العبادة ويقم لهم الأعياد نيمناً ، ويبني الأهرامات والمقامات للاحتفاظ بعظامهم وأسنانهم وأرديتهم وبالأوعية التي يجمعون الإحسان فيها . ويشترى الملوك رفاتهم وبقاياهم بأثمان باهظة . ويحج المتدينون من مختلف الأقطار الآسيوية لیسجدوا أمام آثار أقدام بودا وليملأوا الكنائس المقدسة بالتذور . وإنك لتقرأ في أسفار الحاجين من أهل الصين مبلغ ما يقاسونه من المتاعب والأخطار أثناء رحلات يقدمون عليها بكل تقان وإخلاص . وطبيعى أن ينتظر الإنسان من عقل وصل إلى مثل هذا الدرك أغرب الأمور وأعجبا . فالناس من كل الطبقات في بلاد المغول والتمر رجالا ونساء يمشون يومهم في تلاوة الأدعية لا يمنعونهم عن التلاوة سير ، أو طعام ، أو لعب ، وأخص أدعيتهم الدعاء ذو المقطوعات الست . وهم في سيلان وفي المغول يتلونه أغلب الوقت بلغة لا يفقهونها ، وكلما ازداد الشخص تلفظاً بهذه الأدعية أو كتابة لها أو طبعاً إياها ازداد ثوابه . وقد جر الطمع في هذا المزيد إلى استبدال الماكنية بالإنسان ، وذلك بأن ملئت أسطوانات مخروطية الشكل بأوراق صغيرة نقشت عليها الصلوات والأدعية وعرضت في الطرق العامة وفي المعابد وفي المنازل ليديرها من أراد فيكسب من الثواب كأنه تلا كل الأدعية الموجودة على تلك الأسطوانات ، ومنها ما بلغت ضخامته حتى صارت صورة الصلاة المقدسة منقوشة مائة مليون من المرات وقد ناط بعض ذوي التقوى إدارة أسطوانة الأسرة بخادم

خاص كما أقيمت طواحين الماء والهواء لأداء هذه الوظيفة . ولقد دهش السائحون لما رأوا تدهور الحال العقلية حتى عند أهل الجنوب بسبب توجيهها في هذه السيل . فقد بدت سببا للبله على الأكثرين من القسيسين حتى نرى أغلب هؤلاء التعماء يهدون أثناء سيرهم وتطوق ثغورهم ابتسامة العبادة وبظرتهم خلاء ، أما حالهم العقلية فهي بمنزلة حال الحيوان أو تكاد . وبمثل هذا الوضع الديني وتحت حكم هذا النظام يصبح الرجل صنما .

هذه هي الديانة التي تعتبر الحادث الأكبر في التاريخ الآسيوى - ويرغم أنها في أصلها خلقة إنسانية صرفة فقد تطورت واختلطت على مرّ القرون . وما أطولها قصة دينية ، قصة تطورها التجريدى والقصصى وتقلباتها الوثنية (Payenne) والبرهمة . ومع أنها كانت هندية بحتة في نشأتها فقد امتدت في الشمال وفي الجنوب حتى شملت الهند الصينية ومملكة برما والصين واليابان والمغول وسيريا والتبت وإيران وطوران . وقصة تقدمها الهائل وهزائمها الجزئية ونضالها ضد عبادة النار وضد المسلمين والبراهمة والأشكال المختلفة التي تشكلت بها عند الأجناس المختلفة وفي المدييات التي دخلتها أطول من قصة تطورها وتقلبها . ولو أراد الإنسان في هذا الاضطراب المتعرج الضخم الذى احتل أكبر القارات مدى خمسة وعشرين قرناً أن يستجلى وأن يحدد المظهر الأساسى لهذه الظاهرة لصح له أن يقارنها بعملية جراحية مفيدة ومضعفة أسيل فيها دم الحيوان الإنسانى ، وقد كان على نفسه قوياً قاسياً ، من أربع مفاصله فجعله ما ضاع منه ضعيفاً رقيقاً . وبذلك أصبح أقل نشاطاً وأكثر للاجتماع قابلية ، ومن ثم صار أقل خلقاً وأقل إتلافاً .